المبحث الثالث

حملة خليل باشا الكبرى

المبحث الثالث

حملة خليل باشا الكبرى

أسباب الحملة:

تختلف المصادر التي بين أيدينا وخاصة المحلية منها في تحديد أسباب حملة خليل باشا على إمارة (أبو عريش) على النحو التالي:

١ - ورد في الديباج الخسرواني لعاكش - وهو مؤرخ المخلاف السليماني المعتمد لتلك الفترة - أن السبب وراء الحملة ذلك الخلاف الذي دبَّ في شهر شعبان عام ١٢٣٠ هـ بين الشريف علي بن حيدر والشريف منصور بن ناصر من ناحية، والشريف حمود حاكم (أبو عريش) من ناحية أخرى، مِمَّا دفع بهما للاستنجاد بحسن باشا محافظ مكة المكرمة لمساعدتهما، حيث وعدهما بالمساعدة بعد أن يفرغ الوجه من قتال أهل الدرعية، وكانت تلك المدة قد توجهت الأجناد المصرية لمناجزتهم[١].

٢ - ويشير القاضي الشوكاني -وهو مؤرخ معاصر أيضاً- أن الدافع وراء إرسال الحملة هو: «أن الحسن بن خالد الحازمي جمع طائفة من قبائل عسير وغزا بهم إلى قريب الطائف، فارتجف من ذلك من في مكة من الأشراف، هذا

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ١٢٥.

وقد كانوا استولوا على النجدي وعلى بلاده وأدخلوه في الروم، فأعجب من طيش حسن بن خالد، فإنه تسبب أولاً وثانياً إلى هذه النازلة»[١].

٣- وفي الوثائق العثمانية ما يشير إلى سبب آخر هو أن علماء (زبيد) الذين هم تحت إدارة الشريف وعلماء الأماكن الأخرى كانوا يرسلون بواسطة المفتي في مكة المكرمة رسائل يقولون فيها إن الشريف يحل الحرام، ويحرم الحلال ويزداد في جوره وتعديه على الشرع الشريف، ومخالفته له، ويرجون إنهاء فتنته، وأنهم رغم بعثهم رسالات متعددة في هذا الصدد فقد اختير السكوت تأدباً[٢].

٤ - وهناك سبب أشارت إليه الوثيقة نفسها هو أن الشريف يمنع المسلمين أهل السنة من اتباع الأئمة المجتهدين، ويلقي الفتنة والفساد في أبواب الدين، باعتقادات باطلة موجبة الكفر والطغيان، وهناك ما يؤيد ذلك في المصادر المحلية بأن الحسن بن خالد الحازمي منع القراءة في كتب الفروع حيث يقول عاكش: «... إنَّما الشأن فيما وقع من المنع من الاشتغال بعلم الفروع، فإنه منع من قراءتها في حدود مملكة الشريف حمود من (زبيد) إلى المخلاف السليماني، وأمر العلماء أن يدرِّسوا الطلبة في علم الحديث، وحرّج على من اشتغل بغير ذلك».

ويقول: «... إنَّما المنع من قراءة الكتب الفقهية لا معنى له، إذ المعلوم أن كل كتاب من الكتب الفقهية على اختلاف المذاهب المتبوعة غالبها له مستند من

(١) الشوكاني، المرجع السابق ٢/٣٧٢.

(٢) من الصدر الأعظم إلى السلطان، بدون تاريخ، خط همايون رقم ١٩٥٥٣، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

الأدلة الشرعية كتاباً وسنة... فسد الباب على طلبة العلم لما اشتملت عليه من ذلك ليس مِمَّا ينبغي...»[١].

وبدراسة ما بين أيدينا من المصادر والوثائق واستقراء ما ورد فيها من تحليلات حول دوافع الحملة يمكننا أن نقسم الأسباب والدوافع إلى قسمين:

أ- أسباب رئيسة:

١ - جاءت حملة خليل باشا بعد سقوط الدرعية مباشرة[٢]، حيث وردت الأوامر إلى إبراهيم باشا وحسن باشا بضرورة إنهاء مسألة عسير والمخلاف السليماني، حيث إن هذه المنطقة تشكل تهديداً مباشراً للحرمين الشريفين، حيث يشير محمد علي باشا في تقريره للسلطان إلى ذلك بقوله: «إن الفتنة تزداد يوماً بعد يوم بين القبائل المذكورة، ولو انتقل هذا الحال - لا قدر الله - إلى الحرمين الشريفين فإن إيقافه وإخماده سوف يكون عسيراً، وهذا أمر بدهي وظاهر أن الجنود التي في معية الباشا تلقى هزيمة بعد أخرى، ولو استمر الحال على هذا المنوال فسوف يصيب المشاة والجنود السأم والفتور...»[٣].

---

(١) عاكش، عقود الدرر، ٢٨١ - ٢٨٢؛ وحدائق الزهر، ٦٣ - ٦٦.

(٢) سقطت الدرعية في ٨ ذي القعدة عام ١٢٣٣ هـ.

انظر: عبدالرحيم، الدولة السعودية الأولى، ٣٥٣؛ ابن عثيمين، تاريخ المملكة العربيَّة السعودية ١٩٦/١ .

(٣) من محمد علي إلى السلطان العثماني في ٣ رمضان ١٢٣٣ هـ، خط همايون رقم ١٩٥٩٧، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

- من السلطان إلى محمد علي باشا، في أول رجب ١٢٣٣ هـ، دفتر مهمة مصر رقم (١٢) وثيقة رقم (٤٤٣)، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

٢- اهتمام محمد علي باشا بتوسيع دائرة ملكه بالسيطرة على إمارة (أبو عريش) التي تعتبر بموانئها الهامة على البحر الأحمر موقعاً استراتيجياً هاماً، ومورداً اقتصادياً جيداً، لابد من ضمان ولائها وتبعيتها، خاصة مع بروز التنافس الإنجليزي الفرنسي في البحر الأحمر[١].

٣ - كما أشرنا في الحملات الفاشلة التي أرسلت إلى المنطقة فإن تركها وعدم إخضاعها بعد ذلك يعتبر مصدراً لانتشار روح المقاومة إلى المناطق الأخرى التي تم إخضاعها والسيطرة عليها سابقاً[٢]، حيث أصبحت تمثل تحدياً للإدارة العثمانية، وضد استراتيجيتها في القضاء على جميع القوى المناوئة في الجزيرة العربيَّة والمتعاطفة مع الدولة السعودية الأولى.

ب- أسباب ثانوية:

يُمكن القول أن الأسباب التي أوردها كل من عاكش والشوكاني، والمتضمنة شكوى علماء (زبيد)، وموقف الشريف من العلماء المجتهدين، وكذلك رغبة الإدارة العثمانية في دعم الأشراف المنشقين عن الشريف حمود، أنها قميص عثمان الذي كانت السلطات في إستانبول ومصر والحجاز تقدمه لدعم موقفها السياسي والعسكري، خاصة وأننا نجد الوثائق تتحدث عن عرض شكوى علماء (زبيد) على شيخ الإسلام في الآستانة لاستئذانه في القضاء على

(١) جاد طه، سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربيَّة، ٥٥ - ٥٦، ٦١ - ٦٢ ؛ أباظه، الحكم العثماني في اليمن، ٣٩ ؛ الحداد، تاريخ اليمن السياسي ٢٣٥/٢ ؛ حراز، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربيَّة، ٨١.

(٢) من الصدر الأعظم إلى السلطان، بدون تاريخ، خط همايون رقم ١٩٥٥٣، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

الشريف حمود[١] وقتله، في الوقت الذي لم تعرض عليه الإذن بإرسال الحملات السابقة، وهذا ما يُمكن أن نطلق عليه الأسباب الإعلامية لكسب الرأي العام المتذمر من هلاك الجنود وقتلهم في حملات لم تحقق هدفها بسهولة، خاصة وأن المبرر الأساسي لوجود القوات في الجزيرة هو القضاء على الدولة السعودية، وإسقاط الدرعية، وقد تحقق لها ذلك.

خط سير الحملة:

تختلف المصادر التي بين أيدينا في حديثها عن خط سير الحملة واتجاهها؛ فهناك من يشير إلى أن الحملة قد تم التخطيط لها على أن تنطلق عبر ثلاثة محاور: الأول: بقيادة خليل باشا عبر (غامد) و(زهران)، وأنه انضم إليه (رجال الحجر) وتمكن من الوصول إلى (شعار).

والثاني: بقيادة سليمان سنجق عن طريق (رجال ألمع) إلى المخلاف السليماني بمعية الشريف علي بن حيدر.

والثالث: بقيادة الشريف محمد بن عون عن طريق (بيشة) و(شهران) إلى (عسير).

وقد حققت الحملة هدفها وسيطرت على عسير، وأخذ خليل باشا من أهالي عسير وقبائلها العهد والمواثيق بالولاء والطاعة قبل عودته إلى الحجاز في مطلع عام ١٢٣٥ هـ، وترك حامية في (طبب)[٢].

ويشير آخرون إلى أن الحملة قد اتجهت إلى إمارة (أبو عريش)، وسيطرت عليها صلحاً؛ حيث سبق الشريف علي بن حيدر خليل باشا إلى المنطقة،

---

(١) من السلطان إلى محمد علي باشا، أول رجب ١٢٣٣ هـ، دفتر مهمة مصر رقم (١٢) وثيقة رقم (٤٤٣)، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

(٢) عبدالرحيم، محمد علي وشبه الجزيرة العربيَّة، ٤٨/٢ ؛ الحفظي، المرجع السابق، ٨١ - ٨٢.

وقبض على الشريف أحمد بن حمود، ثُمَّ واصل خليل باشا سيره إلى (أبها)، وهناك التقى بقوات عسير بقيادة الحسن بن خالد وسعيد بن مسلط، وبعد معارك شديدة قتل فيها الحسن بن خالد ثُمَّ قتل خليل آغا، حيث تولى القيادة بعده راغب آغا[١].

وحيث إن ما ورد أعلاه يعتبر منافياً تماماً لصحة اتجاه الحملة وخط سيرها، فسوف نقدم هنا تفصيلاً لذلك يتم الإشارة إليه لأول مرة، معتمدين في ذلك على الرواية التي قدمها قائد الحملة خليل باشا في تقريره إلى محمد علي باشا[٢]، تاركين له فرصة تقديم ذلك بنفسه حيث يقول:

«قبل الآن.. كان قد ثار في يمن الحجاز الشريف حمود (الذي توفي) ورئيس حُجّابه.. واليوم فإن ولده الشريف أحمد قد اقتدى بحسن بن خالد، ولَمَّا كنت قد كُلِّفت بأخذهما، واستئصال شأنهما، وإحلال النظام على أهل تلك الأنحاء، فإنه بمقتضى مهمتي هذه حضّرت نفسي بعد الحج، فتداركت المهمات الحربية والسفرية...، وفي أوائل صفر ١٢٣٤ هـ توكلت على الله ومشيت مع فريق من المشاة، وأرسلت فريقاً آخر مع المهمات بحراً من جدّة، في حين مشت براً البقية من الخيّالة والمشاة مجهزين بالمقدار الكافي من المهمات، من مكة من فوق جبال الحجاز.

(١) ابن مسفر، المرجع السابق، ٧٩ ؛ العمري، المرجع السابق، ٢٢١، الشوكاني، المرجع السابق ٢/٣٧١.

(٢) من خليل باشا قائد حملة اليمن إلى محمد علي باشا، تاريخها: سلخ ربيع الأول ١٢٣٤ هـ؛ خط همايون رقم ١٩٦٨٢، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

وفي ٢٠ منه وصلنا القنفذة، وتواردت بقية الجيش براً وبحراً.. وفي ٦ ربيع الأول.. تحركنا من هنا، عسكراً ومعدات براً، وعلى سفنٍ بحراً، باتجاه (وادي حلي) وعلى بعد مرحلتين منه رست السفن في مرفأ تلك الجهات، فأوفدت الرجال إلى الجهات لتستكشف أمر رئيس تلك الزمرة: ابن خالد، وتحركت نحو وادي (محايل)، فتحققت من انتشار رجاله في (أبو عريش) وما جاورها، وفي بلاد عسير وشهران ورفيدة ما يتجاوز الـ ١٠ آلاف من الحشرات، وهو على رأسهم متهيأ للحرب والقتال.

وتحركت من هنا.. براً وبحراً نحو وادي (الشقيق) لأسدّ على الشقي الطرق بواسطة الذين عينتهم لهذه المهمة، ووزعتهم على الأطراف لأخذه واستئصال شأنه، فلمَّا علم الشقي بهذا ترك قيادة أعوانه وأنصاره وهو خائف من قهر وغضب السلطان.. وفرّ نحو جبال عسير، فتلقَّاه مشائخ العربان الطائعين للسلطان المكلفين بأمره من قبل.. في حين أرسلنا إليهم التأكيد بالقبض عليه بأي حال.. ولم يرد من هؤلاء أي خبرٍ حتى الآن، والأمل بالله معقود على وقوعه باليد قريباً، حيث يتخلص أهل البادية والبلاد من شره وفساده.

وبعدها.. تحركنا نحو قلعة (مسلية) مقر حكم الشقي، حيث فرَّ المتحصنون فيها فخرّبناها، وجعلنا أهلها والفقراء فيها مؤتلفين.. ثُمَّ قصدنا قلعة (أم الخشب) وهذه أيضاً فرَّ منها الأشقياء، فمنحنا أهلها الأمان، ووضعنا فيها مقداراً كافياً من العسكر للمحافظة عليها.

ثُمَّ قصدنا وادي (صبيا) ففرّ من قلعته أيضاً الأشقياء، فأمنّا أهلها، ووضع فيها عسكر واعتُني بحفظها وحراستها، وأخيراً قصدنا الوطن الأصلي للشقي حيث قلعة (ضمد) التي انحشر فيها عدد كبير من الأشقياء الذين فرّوا أيضاً، فضُبطت وعُين عليها محافظ، وإلى جانبه مقدار من العسكر، وبذل التفكير لتأليف الأهالي والفقراء في هذه المحال.

ثُمَّ التفتنا إلى تنظيم أمور الجيش خيّالة ومشاة، وتحركنا من هنا نحو قلعة (أبو عريش) وهي مقر حكم ابن حمود، فأرسل هذا مراسيله الذين قالوا بأن سلوكه إنَّما نشأ بإغواء ابن خالد، وأنه لَمَّا لاحظ قهر وغضب السلطان.. رام طلب الأمان.. فقلت لهم مشافهة - كما تلقيت التنبيه من وليّ النعم -: إننا لم نأت إلى هنا للمسّ به. ومنحته الأمان، على أن يأتي ويكتسب الاطمئنان، ويكون في معيتي بدخول القلعة.. حيث نصبت أوتاد الخيام.. وبُوشر باستمالة الأهالي والفقراء وتأمين أمورهم».

هكذا كان خط سير الحملة إلى ما قبل دخول (أبو عريش) حيث سنناقشه لاحقاً، ولعل سبب الخلط قد جاء لدى بعض المؤرخين حول سير الحملة عبر السراة ما أشار إليه قائدها في مطلع تقريره من قيام فرقة من المشاة بالسير عبر السراة، ثُمَّ التقت ببقية القوات في القنفذة، ولعلها سلكت طريق السراة حتى بلاد غامد، ومن ثَمَّ انحدرت صوب تهامة فالقنفذة.

ولعله قد زاد من الوهم في سرد الأحداث أنه صاحب إرسال هذه الحملة أو بعدها بقليل حملة أخرى باتجاه عسير يقودها كل من محمد بن عون

وسليمان سنجق، جاءت عن طريق (بيشة) وبلاد (شهران)، والتقت بقوات عسير بقيادة الحسن بن خالد الحازمي، ومحمد بن أحمد المتحمي، وسعيد بن مسلط، حيث قاموا بمواجهتها في أكثر من معركة، وتمكنت في النهاية من قتل الحسن بن خالد الحازمي في معركة (زهوه) قريباً من جبل (شكر) بأحد رفيدة في ٢٣ شعبان ١٢٣٤ هـ، ثُمَّ واصلت قوات محمد بن عون مسيرها إلى (طبب) حيث استطاعت دخولها والقبض على محمد بن أحمد المتحمي وابنه مداوي، وأُرسلا إلى محمد علي باشا في القاهرة، وبذلك استتب الأمر نسبياً في عسير حتى ثورة سعيد بن مسلط في منتصف عام ١٢٣٧ هـ[١].

الموقف في إمارة (أبو عريش) تجاه الحملة:

تولى الشريف أحمد بن حمود الحسني إمارة (أبو عريش) عقب وفاة والده مباشرة، وبايعه الأشراف وغيرهم في (أبو عريش)، ويشير مؤرخ تلك الفترة: الحسن بن أحمد عاكش إلى ظهور خلاف بين الشريف أحمد والحسن بن خالد الحازمي بناء على وشاية من الأشراف الذين عانوا من مواقف الحسن ابن خالد ضدهم أيام الشريف حمود، ويصف ذلك قائلاً: «... فلما لحق بالعالم الأخروي - يعني الشريف حمود - ظنوا - أي الأشراف - أنهم بولاية ولده الشريف أحمد ينالون المراد، ويرجعون إلى عادتهم السالفة من التكرمة والإمداد... فلم يزل قرابته يدلونه على الاستبداد في جميع أموره؛ لأن العاجز

(١) النعمي، المرجع السابق، ١٦٥ ؛ العقيلي، المخلاف السليماني ٤٩٦/١ ؛ عاكش، حدائق الزهر، ٦٢ ؛ الحفظي، المرجع السابق، ٨٢.

من لا يستبد... ويحذرونه من فعل والده، فمال معهم إلى هذا التدبير، وأظهر مباينة السيد حسن بن خالد...»[١].

ولكن هناك الجناح المؤيد للحسن بن خالد الذي تحرك بزعامة الشريف حسن بن شبير بن مبارك لإنهاء الخلاف، حيث اجتمع الشريف أحمد والحسن ابن خالد ما بين وادي (بلاج) و(جازان)، وحاول الطرف المضاد إجهاض محاولة الصلح عن طريق حشد القوات والجنود على الرغم من امتعاض الشريف أحمد، وانتهى الاجتماع إلى اتفاق بين الطرفين، ويصف ذلك عاكش بقوله: «... وانضم عقد الكلام في ذلك المقام على وقوف الشريف أحمد والسيد الحسن بين الجيشين تحت شجرة، وكل منهما يفيض على الآخر عجره وبجره... وآل الأمر إلى أن بايع السيد الحسن الشريف، وصار ما بينهما بالاتحاد أصفى من ماء الغمام، وكأنه لم يكن جرى شيء من الخلاف... وفي آخر ذلك اليوم توجهوا جميعاً إلى (أبو عريش) وسكنت أمور الناس من التشويش... وضربت المدافع للأفراح، واستحال ذلك الغسق صباحاً أي صباح...»[٢].

وبعد استقرار الأوضاع في (أبو عريش) وتولي الحسن بن خالد للوزارة بدأ الشريف يوطد أركان إمارته، ويشير عاكش في أحداث عام ١٢٣٤ هـ إلى أن الشريف أحمد بدأ يفكر في مد يد الصلح إلى قوات محمد علي في الحجاز، «وأنه استماله من استمال... فحسن المصاحبة للأتراك ليسكن عنه شرهم في

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ١٨٦.

(٢) نفسه، ١٨٨.

جميع الأحوال»، ولكن الحسن بن خالد «لم يستحسن هذا الفعال، ويرى أن تصافي العرب والعجم لا يُمكن؛ لأن بينهما نسبة التضاد...، وأرسل بعض الأعيان لتغليق هذا الباب»[١].

ونجد في الوثائق التي بين أيدينا ما يشير إلى مراسلات بين حاكم الحجاز والشريف أحمد تؤيد ما ذهب إليه عاكش، حيث يشير محمد علي باشا في تقريره الذي رفعه إلى السلطان بتاريخ ١٤ جمادى الأولى ١٢٣٤ هـ إلى هذه المحاولة بقوله: «... ولذلك كنت قد عينت خليل باشا وهو من أمراء الجيش ليتولى هذه المهمة، ولكن في هذه الأثناء جاء خبر وفاة الشريف حمود، فأرسلنا إلى ابنه ناصحين ألا يسلك سلوك والده، وأن ينهج نهج الأشراف الآخرين، وأن يطيع السلطان، ولكنه لم يستجب للنصح ولو بمقدار شعرة، نظراً لأنه كان واقعاً تحت تأثير وإضلال حسن بن خالد...»[٢].

وصلت أخبار حملة خليل باشا وترتيباتها إلى مسامع الحسن بن خالد الحازمي في (أبو عريش) حيث كان الشريف أحمد مشغولاً بحملته على بلاد (الخميسين) في جهات اليمن، حيث توغل في بلادهم حتى وصل جبل (كحلان)[٣]، ويشير عاكش إلى أن الحسن بن خالد كان يتوقع هجوم الأتراك على إمارة (أبو عريش) حيث يقول: «... وكان السيد العلامة الحسن بن خالد

---

(١) المرجع السابق، ١٩٢.

(٢) من محمد علي إلى السلطان في ١٤ جمادى الآخرة ١٢٣٤ هـ، خط همايون رقم ١٩٦٩٢ - G أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

(٣) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٠٨.

وغيره من عقلاء الناس يرون بقاء الدرعية في المناوأة للأتراك اشتغال لهم عن الالتفات إلى هذه البلاد، وأنه لا يردهم عن التوجه إليها بعد أن يصفى لهم الجو رادّ...، ولقد رأيت خطأً من السيد العلامة حسن بن خالد إلى شيخنا القاضي العلامة عبدالرحمن بن أحمد البهكلي يُعظِّم عليه أخذ الدرعية، ويراها براعة استهلال للبلية،.. ويفصح له باستيلاء أيدي الأتراك بعد أخذها على هذه البلاد، والله أعلم من أين استمد هذا الخاطر، فلعله برؤيا منامية...»[١].

وحينما تأكد الحسن بن خالد من انطلاق الحملة التي كانت تزحف باتجاه إمارة (أبو عريش) عبر مسارين: بحري وبري، ونقطة التجمع ميناء القنفذة الذي يعتبر نقطة الحدود الجنوبية لحكومة الحجاز، وحيث إن القوات التي قدمت عن طريق البر قد سلكت طريق السراة في المرحلة الأولى، ثُمَّ انحدرت باتجاه القنفذة لأسباب قد تكون لوجستية أو إعلامية تضليلية[٢]، فإن الأخبار تواترت في المنطقة بأن الحملة باتجاه عسير.

وحيث إن التحالف بين إمارة عسير وإمارة (أبو عريش) ما زال قائماً، فقد اتجه الحسن بن خالد الحازمي بقواته فوراً إلى عسير باعتبارها خط الدفاع

---

(١) المرجع السابق، ١٩٥، وتظهر براءة القاضي عاكش في نظرته إلى الأوضاع السياسية في الجزيرة العربيَّة، فالحسن بن خالد قد دخل عدداً من المعارك مع قوات محمد علي باشا وهزمت في أكثر من موقع وقتل فيها العديد من القادة والجنود، فهو يتوقع بحسه السياسي والعسكري أنه بسقوط الدرعية لم يبق أمام قوات محمد علي سوى إمارة عسير و (أبو عريش) ، والتي كانتا مصدر قلق للإدارة العثمانية في الحجاز.

(٢) يشير عاكش إلى أن الحسن بن خالد بعد طلوعه إلى السراة ظل في انتظار قدوم القوات التي انحرفت عن مسارها مسرعة نحو (أبو عريش) ويقول: «فما راعه إلاَّ خبر رحيلهم لمقصدهم، ولا شك أن الحرب خدعة، فقام وقعد لهذه المكيدات، وعلم صدق قول سيد الخليقة عليه الصلاة والسلام: اتركوا الترك ما تركوكم».

انظر: الديباج الخسرواني، ٢٠٥.

الأول عن المخلاف السليماني بعد التنسيق مع الشريف أحمد الذي بدوره كان في طريق عودته إلى (أبو عريش)[١].

وقد كان الحسن بن خالد وزعماء عسير ينتظرون الحملة التي كانوا يظنون أنّ قدومها سيكون عبر (محايل) فوادي (تيّه)، وهو نفس الطريق الذي تسلكه القوات الغازية دائماً، وقد أشار إلى ذلك خليل باشا في تقريره حيث يقول: «وتحركت نحو وادي (محايل) فتحققت من انتشار رجاله - أي الحسن ابن خالد - في (أبو عريش) وما جاورها وفي بلاد عسير و(شهران) و(رفيدة) ما يتجاوز الـ ١٠ آلاف من الحشرات، وهو على رأسهم متهيأ للحرب والقتال»[٢].

وفي الوقت الذي تأكد فيه الحسن بن خالد وزعماء عسير بأن الحملة تسير وفق الطريق المعتاد، وأن خططهم وترتيباتهم في سبيل الإيقاع بها تسير وفق ما يريدون، كانت القوات التركية قد وصلت إلى (الشقيق) عبر البحر، وتبعها القائد العام خليل باشا في حركة خاطفة باتجاه (أبو عريش)[٣].

ولم يتوان الحسن بن خالد وزعماء عسير -سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل- المقاومة بعد وصولهم خبر انحراف خليل باشا بقواته، فانطلقوا عبر عقبة (ضلع) باتجاه تهامة، ولكن معظم قوات خليل باشا كانت قد توغلت في أراضي المخلاف، وتحرج موقف الحسن بن خالد حيث تخلى عنه معظم

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٠٥ ؛ النعمي، المرجع السابق، ١٦٤ ؛ العقيلي، المخلاف السليماني ٤٩٤/١.

(٢) من خليل باشا إلى محمد علي باشا، وثيقة سابقة برقم ١٩٦٨٢.

(٣) الوثيقة السابقة.

جيشه الذين تفرقوا بدون إذن بعد هذه المفاجأة[١]، ولعل كل منهم أصبح يفكر في نفسه وأسرته.

ومن ناحية ثانية فإن حجم القوات وعددها وما لديها من المعدات فاق تصور الحسن بن خالد، مِمَّا جعله يؤثر العودة إلى عسير بعد أن عرض عليه زعماؤها ذلك كما ورد لدى عاكش: «... وكان غرة جنده (بني مغيد)، وقائدهم الشيخ سعيد بن مسلط وأخوه لأمه علي بن مجثل، وهما ممن يجنح إلى معالي الأمور، ولهما في الوفاء السموألي نصيب مشهور، فوقع الشور منهما أن يرجع إلى بلادهم، وينزلونه في الدفاع عنه كأولادهم، وعقدوا له البيعة أن يؤوه وينصروه، ويعززوه ويوقروه، فلما رأى خذلان أصحابه من أهل تهامة، وتفلتهم من بين يديه حتى إن بعضهم يعاهده بالليل ويفر بالنهار.... فرجع معهم نحو السراة...»[٢].

وقد أشار إلى ذلك خليل باشا في تقريره الذي ورد فيه: «... وتحركت من هنا براً وبحراً نحو وادي (الشقيق) لأسدّ على الشقي الطرق بواسطة الذين عينتهم لهذه المهمة، ووزعتهم على الأطراف لأخذه واستئصال شأنه، فلما علم الشقي بهذا ترك قيادة أعوانه وأنصاره... وفرّ نحو جبال عسير...»[٣]، وقد مكث الحسن بن خالد في عسير حتى مقتله كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

---

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٠٥.

(٢) نفسه، ٢٠٦.

(٣) من خليل باشا إلى محمد علي باشا، الوثيقة رقم ١٩٦٨٢.

أمَّا بالنسبة للشريف أحمد بن حمود فقد عاد مسرعاً إلى (أبو عريش)، ولا نجد في ما بين أيدينا من الوثائق والمصادر ما يشير إلى قيامه بأي محاولة تذكر للدفاع أو المقاومة، ويُمكن تحليل هذا الموقف بأن الشريف أحمد وقد بلغه سقوط الدرعية، وما قام به إبراهيم باشا من تدمير لها، وأسرٍ لزعمائها قبل وصول حملة خليل باشا بأشهر قليلة، رأى أن المقاومة لن تجدي شيئاً مقارنة بقوات الدولة السعودية الأولى التي لم تستطع الصمود أمام جحافل محمد علي باشا، ومن هنا آثر السلامة وانتظار تطورات الموقف، وقد سبق أن أشرنا إلى أن فكرة الصلح مع قوات محمد علي باشا كانت تراوده من السابق لولا رفض الحسن بن خالد الحازمي.

ونجد في المصادر ما يشير إلى تدخل بعض الأطراف ذات العلاقة بالحملة لإيضاح أن الهدف منها هو بسط السيادة العثمانية مع إبقاء الشريف أحمد أميراً تابعاً للإدارة العثمانية، وقد أشار إلى ذلك مؤرخ تلك الفترة القاضي عاكش بقوله: «... وقد كان خالج فكره ما قد استمال به بعض من استمال، وألقى إليه أنهم لا يريدون إلاَّ أن يقيموك في المملكة على حسب عادتك وعادة أبيك... إنَّما بالانتساب إليهم والدخول تحت طاعتهم تسكن عنك حركات الفتنة، وتحط عن كاهلك الأثقال، وما علم أن دون ذلك خرط القتاد...»[1].

وقد حاول بعض الأعيان والأشراف إقناع الشريف أحمد بضرورة الدفاع والمقاومة، خاصة وأن لديه من القوات المحلية والمرتزقة من (همدان) وغيرهم

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٠٨ ؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ٥٠٤/١.

ما يُمكن به القيام بالمطلوب حسب المستطاع، ولكن محاولتهم ذهبت أدراج الرياح، ووصف ذلك عاكش بقوله: «... فلم يصغ أذناً إلى قول ذلك النصيح، بل رأى أن ذلك القول الحسن هو عين القبيح...»[١].

وكما سبق أن رأينا كيف تساقطت القلاع التهامية الواحدة تلو الأخرى، حيث كان خليل باشا يضع في كل قلعة حامية عسكرية لضبط أمورها، وإحكام السيطرة عليها، فقد وصلت قواته إلى قلعة (ضمد) التي تعتبر المعقل الأخير قبل دخوله إلى (أبو عريش)، حيث تم السيطرة عليها، وأقام خليل باشا فيها مدة ينظم أمور جيشه من ناحية، ويبذل جهوده الدبلوماسية من ناحية أخرى، لدخول (أبو عريش) دون قتال.

وهنا تختلف الرواية بين الوثائق والمصادر المحلية، ففي الوقت الذي يشير فيه خليل باشا إلى أن الشريف أحمد قد أرسل مراسيله معتذراً وطالباً الأمان، وأنه أبلغ هؤلاء الرسل مشافهة بقوله: «إننا لم نأت إلى هنا للمسِّ به، ومنحته الأمان على أن يأتي ويكتسب الاطمئنان، ويكون في معيتي بدخول القلعة»[٢]، نجد القاضي عاكش يروي هذا الموقف على النحو التالي: «... فلما طرح خليل باشا في وادي (ضمد)، راسله بالكلام - يقصد خليل باشا - بواسطة الشريف راجح بن عمرو الشنبري، وكان الشريف راجح لا يصطلى بناره في الشجاعة

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٠٨ ؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ٥٠٤/١.

(٢) من محمد علي باشا إلى السلطان، في ١٤ جمادى الأولى ١٢٣٤ هـ، خط همايون برقم ١٩٦٩٢ - G، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

وانظر أيضاً تقرير خليل باشا إلى محمد علي، وثيقة سابقة برقم: ١٩٦٨٢ .

والدهاء، فوصل إلى (أبو عريش) وأبدى للشريف أحمد الخطاب، وحسّن له الدخول في طاعة الأتراك من أبواب، ولم يشعر الناس إلاَّ بخروج الشريف أحمد صحبة الشريف راجح، وحوادث الأيام تصيح بزوال المملكة على رأسه بالنوايح...»[١].

ويبدو لي أن رواية عاكش أقرب إلى الواقع، فخليل باشا لا يريد أن يظهر في تقريره بمظهر الضعف في مراسلته للشريف أحمد، حيث كان يخشى من مقاومته، في الوقت الذي كانت قواته تعاني من الأمراض الفتاكة والإنهاك والتعب، كما أشار إلى ذلك في تقريره الآنف الذكر.

على أي حال فقد خرج الشريف أحمد صحبة الشريف راجح إلى مخيم خليل باشا في (وادي ضمد)، وأعلن استسلامه مصدقاً لوعود الشريف راجح والقائد خليل باشا بأنه سيبقى على وضعه السابق أميراً على المخلاف السليماني، ومن (ضمد) عاد إلى (أبو عريش) بصحبة خليل باشا وقواته، مأموراً بعد أن سار وهو أمير، مطلوقاً بينهم وهو في الحقيقة أسير[٢].

ودخل خليل باشا وقواته إلى (أبو عريش) منتصراً دون أدنى مقاومة، وهناك نصب الخيام قبلي (أبو عريش) وضربت المدافع من القلاع وكان يوماً شهده الخاص والعام[٣].

---

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٠٩ ؛ العقيلي، المخلاف السليماني، ٥٠٤/١.

(٢،٣) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢١٠.

ومن الجدير بالذكر أن خليل باشا وإن لم يواجه مقاومة عسكرية إلاَّ أنه قد عانى كثيراً في حملته تلك، ليس في جانب نقص الذخائر والمهمات بل بسبب الأمراض والإنهاك والظروف الجوية القاسية، وسأتركه يروي لنا ذلك كما ورد في تقريره المشار إليه سابقاً: «... وأمَّا في شأن الخزنية والذخائر والمهمات العسكرية فإن ما صرفناه من المهمات ليس كثيراً، ولدينا منها الوفير، وذخائرنا ترد إلينا تباعاً بواسطة أمين جمرك جدة علي آغا عشاقي.

وفي صدد المال فإننا بحاجة إلى وروده من قبلكم لإعطاء العسكر مقداراً من المشاهرة، وإبقاء القليل منه للمصاريف الضرورية، ونرجو من ولي النعم أن يرسل إلينا ١٠٠ ألف فرانسه.

ولما كان عسكرنا - المشاة والخيالة - قد أقاموا في (الربع الخالي)[1] أكثر من اللازم، وكان الماء والهواء هنا رديء جداً، فقد أصاب العسكر نوع من الحمى فانطرحوا في عناء المرضى، وقليل منهم قد مات تحت مؤثرات تلك العلّة، ولبث تأثيرها سائداً فأصابتهم الذلَّة والمسكنة، وسَرَت إلى الذين في معيتي من العربان والشرفاء، وقد أصيب (٨٠٠) خيال من رجال حسين بك رئيس الأدلاء، و(٤٠٠) من رجال محمد آغا طاغلي أوغلي، و(٤٠٠) من خيالتي، وبينما كان مجموع الخيالة (١٦٠٠) تيسر لنا الوصول إلى (أبو عريش) ومعنا (٦٠٠) خيال فقط، وبالقياس على هذا يعرف وضع المشاة...».

(١) هكذا في الوثيقة.

(٢) من خليل باشا إلى محمد علي باشا، الوثيقة رقم ١٩٦٨٢.

الترتيبات التي اتخذها خليل باشا في (أبو عريش):

لبث خليل باشا في (أبو عريش) مدة تقرب من ثمانية أشهر، حيث دخلها في منتصف شهر ربيع الأول تقريباً[١] وغادرها في (ذو القعدة) من العام نفسه[٢]، وكان خلال بقائه هناك قد اتخذ سلسلة من الإجراءات التي تحقق أهداف حملته على النحو التالي:

أولاً- إحكام السيطرة على المنطقة:

بادر خليل باشا في سبيل تثبيت سلطته على إمارة (أبو عريش) بكاملها باتخاذ الشريف أحمد وسيلة لتحقيق هذا الهدف، وقد كان الشريف في حالة من الانهزام النفسي، والتطلع في نفس الوقت لكسب رضاء خليل باشا الذي كان يظهر له من المودة والاحترام ما يمد له حبل الآمال في أن يستمر في الإمارة، ومن هنا أمره أن يكتب إلى عماله في جميع الأماكن المهمة في المخلاف السليماني لتسليم مقاليد السيطرة إلى قوات خليل باشا[٣] حيث تمت السيطرة على قلاع (جيزان) و(الحديدة) و(اللحية) و(زبيد) و(بيت الفقيه)، ووضع في كل قلعة مقداراً كافياً من العسكر، وعين لها محافظاً من رجال خليل باشا[٤].

---

(١) أرسل خليل باشا تقريره إلى محمد علي في نهاية شهر ربيع الأول، وفيه تفصيل لكثير من الإجراءات التي اتخذها بعد دخول (أبو عريش) مما يجعلنا نجتهد بأن دخول (أبو عريش) كان فيما بين الخامس عشر والعشرين من شهر ربيع الأول ١٢٣٤ هـ.

(٢) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٤١.

(٣) العقيلي، المخلاف السليماني ٥٠٥/١ ؛ الشوكاني، المرجع السابق ٣٦٩/٢.

(٤) من خليل باشا إلى محمد علي، الوثيقة رقم ١٩٦٨٢.

ونظراً لما عانته قوات محمد علي باشا في سبيل السيطرة على الدرعية، وفشل حملاته المتعددة على عسير، فقد كانت السيطرة على إمارة (أبو عريش) بهذه السهولة والسرعة مفاجأة حتى لقائد الحملة الذي أشار إلى ذلك في تقريره الآنف الذكر بقوله: «... وكما ذكرت فإن ما ضبط في يمن الحجاز وأطرافه من الأراضي المحدودة التي صارت تحت التصرف، وما تَمَّ الاستيلاء عليه بالتعاقب من القلاع التي فتحت وعددها (١٠) قلاع.. لو أنها أخذت بالحرب والضرب - وكما هو معلوم شأن الصعوبات في معابر ومسالك الأودية والجبال - لكانت بحاجة إلى مشاق أكثر، وعناء أوفر، بالإضافة إلى ما كان يجب بذله من مهمات ومصروفات، ولكن ولله الحمد والمنة، وبيمن توجّه السلطان.. لقد تم الضبط والاستيلاء على القلاع والبنادر بأهون سبيل».

ثُمَّ يشير خليل باشا إلى تعاون بعض الأهالي ورغبتهم في التلخص من حكم الشريف حمود وابنه والحسن بن خالد الحازمي: «... إذ كان الأهالي تحت وطأة ضغط الشريف حمود ثُمَّ ابن خالد القاسية؛ ولذلك كانت آمالهم بتخليص أرواحهم بالدخالة، والالتجاء لظل السلطان ابتغاء السلامة، وحلّ عليهم السرور والانشراح، فشكروا الله تعالى حمداً وثناء...»[١].

ثانياً- القبض على الشريف أحمد وإرساله إلى مصر:

استمر الشريف أحمد يواصل خليل باشا يومياً في مخيمه بـ (أبو عريش) حيث كان يشعره بأنه سيبذل الجهد في سبيل إقناع محمد علي باشا ليشفع له

(١) الوثيقة السابقة.

عند السلطان لإبقائه والياً على المخلاف السليماني[١]، ويشير خليل باشا في تقريره السابق إلى أن الشريف أحمد بحسن رضاه ورغبته عرض عليه خيوله الموجودة، ولكنه لم يقبلها نظراً لعدم معرفته برأي محمد علي باشا في ذلك[٢]. ولكننا نجد رواية مختلفة لدى عاكش الذي يقول عن الشريف أحمد: «... وهو يواصل خليل باشا في البكر والآصال، وما برحت مطالبه له تتجدد للخيل وغيرها حتى صارت أكثرها لديه...»[٣].

والذي يترجح عندي أن عاكش قدم الصورة الحقيقة للموضوع، فلا يُمكن أن يقوم الشريف بإحضار خيوله التي تعتبر أعز ما يملك الإنسان وعرضها على خليل باشا، بل المتوقع أن يقوم خليل باشا باستغلال الظرف الذي يعانيه الشريف أحمد، ويطلب منه خيوله ومدافعه ومعداته الحربية حتى يسلبه الإمكانات العسكرية المتوافرة لديه استعداداً لما كان يخطط له من القبض عليه.

ففي الوقت الذي كان يظهر للشريف أحمد أنه يتوسط له لدى محمد علي باشا فإن الوثائق التي بين أيدينا تشير إلى أنه كان يراسل سيده في القاهرة لأخذ رأيه في كيفية التصرف مع الشريف وأملاكه، وكان محمد علي بدوره يراسل السلطان لأخذ رأيه في ذلك موضحاً أن بقاءه في المخلاف السليماني مخالف للمصلحة، حيث إن الطبع الذي كان في والده من حب السعي إلى

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢١١.

(٢) من خليل باشا إلى محمد علي، الوثيقة رقم ١٩٦٨٢.

(٣) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢١١.

الفتنة قد انتقل إليه، ويتساءل محمد علي في رسالته إلى الديوان السلطاني: «... هل من المناسب أن يقيم مع أهله في مصر أم في مكة المكرمة؟ أو من الأصوب أن يأتي إلى مصر ويتوقف بها فترة حتى يتم اختيار مكان مناسب على ساحل (الأناضول) أو (الروملّي)...» وقد كانت إشارة السلطان على خطاب محمد علي: «بأنه لا يجوز إقامة المذكور وأهله في مكة المكرمة أو فيما حولها، فليحضر إلى مصر الآن مع أهله وممتلكاته، ويقيم بها فترة، وإذا ظهر من تصرفاته ما نحذر منه ينقل إلى مكان آخر في الروملي»[١].

في هذه الأثناء يشير مؤرخنا عاكش إلى أن الشريف علي بن حيدر الذي كان على رأس الحملة مع خليل باشا ولديه علم بما يدور خلف الكواليس قد أشار على الشريف أحمد بالفرار والاختباء حتى لا يتم القبض عليه، ولكن الشريف أحمد لم يحمل كلامه على النصح، بل تجاوز ذلك بأن أخبر خليل باشا بما أشار به الشريف علي بن حيدر، مِمَّا جعل الشريف علي ينكر ذلك، وهذا يدل على مدى ما وصل إليه الشريف أحمد من الانهزام والارتماء في أحضان القوات الغازية[٢].

وبناء على أوامر السلطان فقد وصلت الأوامر إلى خليل باشا بالقبض على الشريف أحمد وإرساله إلى مصر، ويصف عاكش ذلك بقوله: «... فاتفق في

(١) من محمد علي إلى الديوان السلطاني، في ١٤ جمادى الأولى ١٢٣٤ هـ، خط همايون رقم ١٩٦٢٦، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

(٢) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢١١.

بعض الأيام أن وصل إلى خليل باشا على حسب المعتاد، فعرض عليه مرقوماً من الباشا محمد علي مضمونه طلب الوصول إليه، والمثول بين يديه، فأنزله في بعض تلك الخيام، واستدعى ابن عمه الشريف منصور بن مسعود بن محمد، وحُمِلَ معه إلى بندر جازان، وسارت بهم الجواري المنشآت... وبعد مدة قريبه أُرسل إليه الحرم، ولم ترع فيهم الذمم...»[١].

وتشير الوثائق إلى أن محمد علي قد كتب إلى وكيل محافظ جدة وأمين الجمرك بها، ومأمور الجمرك بالسويس منبهاً لهم بضرورة إكرام الشريف أحمد وعياله، وأنه وجه بضرورة استقبالهم وتأمين حسن إقامتهم[٢]، وقد وصل الشريف إلى القاهرة في شهر شعبان ١٢٣٤ هـ صحبة جماعة من هجانة الحجاز[٣] وبقي هناك حتى توفي بمرض الجدري عام ١٢٣٥ هـ[٤].

ثالثاً- المفاوضات مع إمام اليمن:

كان الإمام يتابع تقدم قوات خليل باشا على المخلاف السليماني بشيء من القلق والترقب، حيث لم يكن من الواضح بعد سقوط الدرعية هل ستتوقف أطماع محمد علي باشا بالسيطرة على إمارة (أبو عريش) أم أنه سيتطلع إلى اليمن؟

---

(١) نفسه، ٢١٢.

(٢) من محمد علي إلى السلطان، في ١٥ رجب ١٢٣٤ هـ، بدون رقم ؛ وانظر أيضاً: دفتر [4]معيه تركي، رقم (١٣) وتاريخ ١٥ رجب ١٢٣٤ هـ / ١٠ مايو ١٨١٩ م.

من محمد علي باشا إلى الصدر الأعظم، دار الوثائق القومية بالقاهرة.

(٣) عبدالرحمن الجبرتي، المرجع السابق ٦٠٣/٣.

(٤) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٤٢ ؛ النعمي، حوليات النعمي التهامية، ٦٦.

وقد أشار الشوكاني إلى ذلك القلق بقوله: «... ومع هذا فقد اعتقد الخاص والعام، والكبير والصغير، أنهم سيطوون جميع الديار اليمنية بأيسر عمل؛ لأن القلوب قد ارتجفت بعد استيلائهم على صاحب نجد، وهو صاحب الجيوش الكثيرة والأحوال المتضاعفة، ثُمَّ أخذوا ما بيد الأشراف صفواً عفواً، وبهذا السبب كانت جنود اليمن من جميع القبائل متفاشلة متخاذلة مرتجفة، لم يبق همهم إلاَّ بأنفسهم وحريمهم... فإنها لو خرجت الأتراك على بقية البلاد لم تنتشر لهم راية، ولا اجتمع لهم جيش، بل كانت كل قبيلة ستلزم محلها، فإذا قرب الأتراك منهم هربوا من أوطانهم...»[١].

ولذلك فإن الإمام قد أفرخ روعه بمجرد وصول الخطاب الذي بعثه إليه محمد علي باشا يخبره فيه بالانتصار على الشريف أحمد، ويعترف فيه بأحقيته في تهامة اليمن، ويطالبه بإرسال المال الذي كان يدفع سابقاً لخزينة السلطان في مقابل تسليم تلك المناطق إليه؛ حيث أسرع بإرسال خطابات التهنئة إلى كل من محمد علي باشا وقائده خليل باشا ويكثر لهم من الدعاء والامتنان[٢].

ومن الملاحظ أن خطاب محمد علي باشا يحمل تاريخ ربيع أول عام ١٢٣٤هـ وهو نفس الشهر الذي تمت في آخره السيطرة على (أبو عريش) كما رأينا سابقاً[٣]، وقد لاحظ ذلك الشوكاني حيث قال: «... ومضمون كتاب

---

(١) الشوكاني، المرجع السابق ٢/٣٧٠،

- playfair , op.Cit , 134 .

(٢) صالح رمضان محمود، المرجع السابق، وثيقة رقم (٥٣) من الإمام المهدي إلى محمد علي باشا بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى ١٢٣٤؛ والوثيقة رقم (٥٤) من الإمام المهدي إلى خليل باشا بنفس التاريخ.

(٣) المرجع السابق، وثيقة رقم (٥١) من محمد علي باشا إلى الإمام المهدي في ربيع الأول ١٢٣٤ هـ.

الباشا محمد علي أنه قد جهز الجنود على الأشراف لانتزاع البلاد من تحت أيديهم، وفيه الوعد بإرجاعها إلى مولانا الإمام، وكان تاريخ الكتاب قبل استيلاء من بعثه من الجند عليها...»[١].

ولعل محمد علي باشا قد أعدّ هذا الخطاب صحبة خليل باشا باعتبار توقعاته بنجاح الحملة في السيطرة على المخلاف السليماني، وهذا أمر دارج في الإدارة العثمانية والمصرية حيث يتم إعداد الفرمانات والخطابات المسبقة وتترك مع صاحب الشأن لاستخدامها عند اللزوم.

وعندما أرسل خليل باشا ذلك الخطاب إلى الإمام بواسطة الشيخ عبدالقادر أرفق معه خطاباً منه بتاريخ جمادى الأولى ١٢٣٤ هـ يؤكد فيه سيطرته على (أبو عريش) واستسلام الشريف أحمد، ويطلب من الإمام وفداً للتفاوض حول ما أشار إليه محمد علي باشا في خطابه الآنف الذكر[٢].

أرسل الإمام المهدي القاضي محمد بن أحمد الحرازي والفقيه قاسم بن سعد با بسيط للمفاوضة مع خليل باشا، وأصحب الوفد حصانين، أحدهما يسمى: أبا الجمايل، والآخر يسمى: البشاير، وعليهما كامل العدة اللازمة لهما هدية خاصة لخليل باشا[٣]، حيث بقي الوفد في (أبو عريش) لمدة أسبوع ثُمَّ قفل عائداً إلى صنعاء[٤]، وهو يحمل اعترافاً من خليل باشا بأحقية الإمام في

(١) الشوكاني، المرجع السابق ٣٦٩/٢.

(٢) صالح رمضان محمود، المرجع السابق، وثيقة رقم (٥٢) من خليل إلى الإمام المهدي بتاريخ جمادى الأولى ١٢٣٤ هـ.

(٣) المرجع السابق، وثيقة رقم (٥٦) من الإمام المهدي إلى خليل باشا في ٢٧ جمادى الأولى ١٢٣٤ هـ.

(٤) الشوكاني، المرجع السابق ٣٦٩/٢.

تهامة اليمن، وإمكانية تسليمها إليه مقابل دفع ثلاثة آلاف قنطار من القهوة ترسل إلى مطبخ السلطان سنوياً، إضافة إلى دفع مائتي ألف ريال فرانسة لأجل المساهمة في تكاليف الحملة، وعاد معه ممثلاً لخليل باشا لإكمال المفاوضات السيد يوسف آغا الرومي ومجموعة من الأتراك[١].

وقد لوح خليل باشا خلال المفاوضات مع الإمام أن بالإمكان تسليم هذه المناطق إلى الأشراف الذين بإمكانهم القيام بهذه الشروط وزيادة[٢]، وقد أشار عاكش إلى أن خليل باشا قد عرض على الشريف علي بن حيدر بقاء مناطق تهامة اليمن تحت سلطته، وأنه مأمور بأن لا يطلقها على المهدي إلاَّ بعد أن يمنع منها الشريف، فما كان من الشريف إلاَّ الإعراض عنها[٣].

وقد عين الإمام القاضي الشوكاني رئيساً للجنة المفاوضات مع يوسف آغا ومن معه، حيث انتهت المفاوضات بين الطرفين إلى ما يلي:

١ - اقتناع يوسف آغا بأنه لم يكن هناك أي مبالغ متأخرة لدى الإمام حسبما طلب محمد علي باشا، الذي كان قد أُلقي إليه كذباً أن اليمن كانت تدفع شيئاً من المال إلى السلطان، وأفاد الشوكاني أن هذه المعلومات مكذوبة نقلها بعض تجار اليمن الذين يرتحلون إلى مصر إلى محمد علي باشا[٤].

---

(١) صالح رمضان محمود، المرجع السابق، وثيقة رقم (٥٥)، من خليل باشا إلى الإمام المهدي، بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية ١٢٣٤ هـ ؛ الشوكاني، المرجع السابق ٢/٣٧٠.

-Bidwell , The Two Yemens , 30.

ويذكر Bidwell أن مقدار المبلغ النقدي يساوي مائة ألف دولار.

(٢) صالح رمضان محمود، المرجع السابق، وثيقة رقم (٥٥).

(٣) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٤١.

(٤) الشوكاني، المرجع السابق ٢/٣٧٠.

٢ - الموافقة على تسليم المقدار المحدد من البن والمال، وذلك اعترافاً من الإمام بالجميل «... ولكونهم قد بدؤوا بالإحسان وتبرعوا بالجميل» «وهو شيء يسير يصير إلى مطبخ السلطان، ويقع تسليم شيء من النقد في حكم بقشيش للجنود الرومية المنتزعة للبلاد من يد الأشراف»[١].

٣- تسليم تهامة اليمن إلى الإمام[٢].

وعلى الرغم من الوصول إلى هذا الاتفاق فقد أرسل الإمام المهدي إلى خليل باشا بعد ذلك مباشرة يطلب منه تخفيف كمية القهوة وتنجيم المبلغ المطلوب وقد جاء في رسالته: «... وما رسمتم به من الثلاثة آلاف القنطار البن في كل عام إلى مطبخ السلطان... فذلك مقبول، وعلى كاهل الاحتمال محمول، وإن كان فيه بعض الإجحاف... وأمَّا ما ذكرتم من المائتي ألف الريال المقابلة لرفع العرضي، ولغرامة الجهاد، فلا يخفاكم أن ذلك إنَّما يتيسر من دخل البنادر... وقد دار الخطاب بيننا وبين الحاج يوسف آغا -كثر الله من رجال السلطنة العلية من أمثاله- على تنجيم ذلك بحسب ما يقتضيه الحال...»[٣].

وقد أرسل الإمام المهدي صورة لتلك الرسالة إلى محمد علي باشا في مصر[٤]، غير أنه رفض تخفيض الكمية المفروضة على الإمام للباب العالي

---

(١) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٢) - playfair , op.Cit , 134.

(٣) صالح رمضان محمود، المرجع السابق، وثيقة رقم (٦٠) من الإمام المهدي إلى خليل باشا بتاريخ ١٢ رجب ١٢٣٤ هـ.

(٤) نفسه، وثيقة رقم (٦١) من الإمام المهدي إلى محمد علي باشا بتاريخ ١٢ رجب ١٢٣٤ هـ.

مبرراً ذلك بقوله: لقد أعطيته بدل البن بلاداً واسعة في نظير المقدار المتفق عليه[١].

وتشير الوثائق إلى أن الإمام ظل يماطل في تسليم المتفق عليه، واستمر خليل باشا على الرغم من رحيله إلى الحجاز وتعيينه محافظاً لمكة المكرمة بدلاً من حسن باشا - الذي توجه إلى مصر -[٢] في المطالبة بتسليم المطلوب إلى موفده يوسف آغا، حيث يقول في رسالته إلى الإمام الشوكاني: «... والذي نحيطه علمكم، وذاكي فهمكم، أن الدراهم المتبقية طرف الإمام أعزه الله حان أوان موردها وفات، وتعوق خادمنا الحاج يوسف المذكور، فالمطلوب من حميد وفاء المحاسن ابدار تمشية المذكور بالمبلغين المتبقيين...»[٣].

وقد بيَّن الشوكاني عذر الإمام في عدم السداد بأنه بسبب الجراد الذي اجتاح البلاد كالأطواد، واستمرت الاعتذارات كذلك بعد وفاة خليل باشا وتعيين أحمد باشا يكن مكانه، مرة بسبب المحل وقلة الأمطار، وأخرى بسبب الصراع القبلي وفقدان السيطرة على بعض المناطق، وغير ذلك مِمَّا يدل على أن الإمام لم يقم بدفع ما تم الاتفاق عليه مع خليل باشا[٤].

---

(١) فاروق أباظه، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، ١٠٥، وقد أشار إلى أنه اعتمد في ذلك على وثيقة محفوظة في دار الوثائق القومية بالقاهرة: من محمد علي إلى أحمد باشا، وثيقة رقم (٣٠٠) دفتر (١٤) معية تركي، تاريخ ١٤ جمادى الثانية (١٢٣٩ هـ).

- playfair , op.Cit , 134.

(٢) دحلان، خلاصة الكلام، ٣٠٣.

(٣) صالح رمضان محمود، المرجع السابق، وثيقة رقم (٦٢) من خليل باشا إلى الإمام الشوكاني بتاريخ ربيع الثاني ١٢٣٥ هـ.

(٤) المرجع السابق، الوثائق رقم ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٤، ٦٥.

- al Amri , The Yemen , 92.

أمَّا بالنسبة لاستلام المناطق اليمنية فقد قام الإمام بتكليف القاضي محمد بن أحمد الحرازي بالتوجه صحبة يوسف آغا مندوب خليل باشا إلى تهامة، ومعه عمال الإمام الذين تم تعيينهم لمختلف المناطق، وطائفة من الجند، حيث تَمَّ تنفيذ الاتفاق بتسليم تلك المواقع إليهم من جنود خليل باشا الذين سبق أن استلموها من عمال الشريف أحمد[١]، وبذلك عادت تلك المناطق إلى إمام اليمن وانحسرت عنها سيطرة إمارة (أبو عريش) .

رابعاً- تعيين الشريف علي بن حيدر أميراً في (أبو عريش) :

سبق أن أوضحنا أن الشريف علي بن حيدر قد لجأ إلى حاكم عام الحجاز لطلب النجدة ضد الشريف حمود في عام ١٢٣٠ هـ، وقد شارك في معظم الحملات الفاشلة التي أشرنا إليها ضد تحالف الشريف حمود وأمراء عسير.

وحيث إنه قد أبدى تعاوناً وإخلاصاً للإدارة العثمانية في الحجاز فقد رأى محمد علي باشا بأحقيته باستلام إمارة (أبو عريش) بعد القبض على الشريف أحمد ونفيه إلى مصر.

وينفرد الشوكاني برواية مفادها أن الإمام هو الذي قام بتعيين الشريف علي بن حيدر بعد شفاعة تقدم بها خليل باشا بأن يوليه الإمام البلاد العريشية كما كان عليه أسلافه.. وأنه أنفذ إليه عهد الولاية والكسوة والمركوب[٢]،

(١) الشوكاني، المرجع السابق ٢/٣٧١ ؛ عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٤١ ؛ الجرافي، المقتطف، ٢٦٢.

(٢) الشوكاني، المرجع السابق، ٢/٣٧١.

- al Amri , op.Cit , 92 .

ولعل في ذلك شيء من المبالغة حيث إنه من الواضح في ما بحوزتنا من الوثائق أن مفاوضات خليل باشا مع الإمام كانت محصورة في إعادة تهامة اليمن فقط، وأن لا علاقة له بإمارة (أبو عريش) .

وبعد أن انتهى خليل باشا من تسليم تهامة اليمن إلى الإمام، وإمارة (أبو عريش) إلى الشريف علي بن حيدر، وإرسال الشريف أحمد بن حمود إلى مصر، عاد أدراجه بقواته إلى الحجاز، وذلك في شهر ذي القعدة عام ١٢٣٤هـ، وقام الشريف علي بن حيدر بتشييعه إلى مرفأ (الشقيق) شمال المخلاف السليماني، حيث أبحر من هناك عائداً إلى جدة[١].

وتشير الوثائق إلى مطالبة محمد علي باشا بمكافأة خليل باشا، وترقيته على خدماته الجليلة التي أداها للدولة العثمانية، ونجاح حملته على إمارة (أبو عريش)، وقد ورد الرد من السلطان بمنحه قطعة من فرو السمور، وقلادة تتوسطها جوهرة، تَمّ إرسالها إلى محمد علي باشا لتسليمها إليه[٢]، ثُمَّ كوفئ بعد ذلك بتعيينه محافظاً لمكة المكرمة وقائداً عاماً للجيوش في شبه الجزيرة العربيَّة حيث بقي كذلك إلى تاريخ وفاته في أوائل رجب عام ١٢٣٥ هـ[٣].

● ● ●

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ٢٤٢.

(٢) من محمد علي باشا إلى السلطان، في ١٥ رجب ١٢٣٤ هـ بدون رقم، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

(٣) دحلان، المرجع السابق، ٣٠٣.

الخاتمة

لقد تضمن هذا البحث عرضاً غير مباشر لطبيعة العلاقات بين إمارة (أبو عريش) والإدارة العثمانية في الحجاز، ورأينا كيف تأرجحت هذه العلاقة بين الود الحذِر، والحياد النسبي ثُمَّ الصراع المباشر.

ولقد ظهر لنا من خلال البحث كيف أن التعاون الذي قام بين إمارة (أبو عريش) وإمارة (عسير) قد نجح إلى حد كبير في صد العديد من الحملات التي قامت بها القوات التركية المصرية على الإمارتين، بحيث لو تم استغلال ذلك بشكل أكثر حيوية لما تمكن محمد علي باشا من بسط نفوذه في إمارة (أبو عريش) أو (عسير)، ولأمكن تعويق مسيرة أي قوة تحاول التدخل في شؤون المنطقة.

ولقد كشف البحث وللمرة الأولى عن العديد من المواقف والقضايا التاريخية، وصحّح المعلومات المتعلقة بحملة خليل باشا على إمارة (أبو عريش) من خلال الوثائق العثمانية والمصرية التي قدمت لنا تفصيلاً دقيقاً لكل مراحل الصراع بين التحالف العسيري التهامي من ناحية، وقوات محمد علي باشا الغازية - وخاصة حملة خليل باشا - من ناحية أخرى.

ولقد حققت حملة خليل باشا على إمارة (أبو عريش) الكثير من النتائج الإيجابية لإدارة محمد علي باشا في الجزيرة العربيَّة، حيث تمكنت من القضاء على الطرف المعارض من الأشراف الممثل في الشريف حمود وابنه أحمد، ونقل السلطة إلى الطرف الآخر الذي يعلن انتماءَه وولاءَه وتبعيته لتلك الإدارة، ممثلاً في الشريف علي بن حيدر الذي استمر حاكماً لإمارة (أبو عريش) في ظل

الإدارة المصرية حتى وفاته عام ١٢٥٤ هـ، واستمرار ذلك في عهد ابنه الحسين ابن علي بن حيدر حتى خروج قوات محمد علي باشا من إمارة (أبو عريش) وتسليمها إلى الشريف الحسين عام ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م[١].

ومن المعروف أنه لم يكن من أهداف الحملة السيطرة على اليمن بقدر ما كانت تسعى إلى تأمين الحدود الجنوبية للحرمين الشريفين، ولما تحقق نجاحها فإن عودة تهامة إلى حكم صنعاء يخفف العبء على الباب العالي ومحمد علي باشا، ويجعل الإمام ممتناً وداعياً للسلطان، وفوق ذلك تَمَّ ضمان تصدير كمية ثلاثة آلاف قنطار من البن اليمني الذائع الشهرة إلى مطبخ السلطان سنوياً مجاناً، بالإضافة إلى ما طلبه خليل باشا وأكده مبعوثه من النقد[٢].

ولقد نجحت الحملة في تفتيت الكيان السياسي لإمارة (أبو عريش) الذي كان يشمل المخلاف السليماني وتهامة اليمن، وذلك بإعادة المناطق اليمنية إلى الإمام الذي كان في حالة من الضعف لا تمكنه من استعادتها عسكرياً، وتم إعادة حدود إمارة (أبو عريش) إلى وضعها السابق قبل امتدادها في الساحل اليمني.

وبسيطرة محمد علي باشا على إمارة (أبو عريش) من خلال الشريف علي ابن حيدر، حيث تَمَّ القضاء على ذلك التحالف الذي نشأ بينها وبين إمارة عسير ضد قواته في الجزيرة العربيَّة، وتفرد بعد ذلك بإمارة (عسير) في أكثر من

(١) أباظه، المرجع السابق، ٤٤ ؛ عسيري، المرجع السابق، ٢٢١.

(٢) العمري، المرجع السابق، ٢٢٥.

جولة من الصراع، وإن كان لم يُحكم قبضته عليها، إلاَّ أنه تمكن من القضاء على قدرتها في التحرك نحو الحجاز، وهو أقصى ما كان يسعى إلى تحقيقه آنئذٍ.

ولقد كانت حملة خليل باشا مقدمة لمحاولات محمد علي باشا التالية للسيطرة على الساحل اليمني في ظل بروز التنافس الاستعماري الإنجليزي والفرنسي في البحر الأحمر، وظهور المواجهة مع الدولة العثمانية في تلك المناطق.

وأخيراً تَمَكَّنَ محمد علي باشا من إظهار نفسه بمظهر الحامي لحدود الدولة العثمانية والحريص عليها، وهو في الوقت ذاته يحقق أحلامه وطموحاته بتأسيس إمبراطوريته التي كان يسعى إلى بنائها كما أثبتته الوقائع التاريخية بعد ذلك، والله ولي التوفيق.

• • •